# جهود المستشرقين الألمان في دراسة اللهجات العربيّة المحكيّة وتحديات العولمة

د. ظافر يوسف(*)

**١– مقدّمة:**

تعدّ اللغة العربيّة بتاريخها الطويل وتراثها الحافل وثروتها اللغوية الهائلة من أقدم اللغات في العالم وأهمِّها، فقلَّما نجد لغة في العالم تتمتَّع بمثل هذا التاريخ الطويل عبر آلاف السنين، فنحن لا نعرف حتى الآن متى وُجِدت اللغة العربية أول مَرَّة، ولا كيف كان مظهرها؟ ما نعرفه أنَّ تاريخ اللغة العربية يعود إلى عصور ضاربة في القدم ترجع إلى ما قبل التاريخ، ولا سيما إذا علمنا أنَّ أقدم وثيقة مسمارية يُذكَرُ اسم العرب فيها تعود إلى سجلات الملك الآشوري سلمنصَّر الثالث Salamanassar III في معركة قرقر عام ٨٥٣ ق. م إذ يُذكرُ في التَّحالف المعادي له جندب Gindibu من بلاد العرب Arabaya الذي اشترك بـ(١٠٠٠) جمل، وجندب هو اسم علم يستعمل بكثرة في العربية الشمالية. وكذلك يرد اسم العرب مرارًا في الوثائق التي وصلتنا من عهد الملك تِغْلَت بيليصر الثالث Tiglatpilesar III الذي حكم بين عامي ٧٤٥ – ٧٢٧ ق. م، فإلى جانب Arbaya عثر على الصيغ الآشورية Arubu و Aribi للعرب(١).

---

(*) أستاذ النحو واللغات السامية واللغة الألمانية في جامعة حلب.

(١) ينظر كتاب Grundriss der Arabischen Phylologie, von» Wolfdietrich «Fischer, Bd. I, S.١١.

أمَّا العهد القديم «Das Alte Testament» فيُذكَرُ فيه ملوك العرب وبعض أسماء القبائل العربية، وكذلك الملك قِدَر Qedar من قبيلة جشم Gasmu العربية التي أعادت في عام ٤٤٤ ق. م بناء مدينة القدس(٢).

وإذا كان اسم العرب لا يرد قبل هذه الوثائق التاريخيَّة، فإنَّ هذا – بالتأكيد – لا يعني أنَّ وجود العرب يبدأ بهذا التاريخ، وما دام العرب قد ذُكروا في هذه الوثائق، فلا شكّ أنَّ وجودهم سابق لها. إنَّ ما نريد أن نصل إليه من هذه المقدِّمة أنَّنا إذا كنَّا نجهل العمر الحقيقي للغة العربية، فإنَّنا لا نستطيع إلاَّ أن نؤكِّد امتداد جذورها إلى قرون طويلة سابقة للميلاد، وهذا ما ذهب إليه علماء الساميّات الذين يَعُدّون اللغة العربية أقدمَ لغة ساميَّة على الإطلاق، وذلك لأنَّها اللغة الساميَّة الوحيدة التي حافظت على اللفظ الصحيح للأصوات الساميَّة، ولأنَّها اللغة الوحيدة من بين شقيقاتها التي احتفظت بظاهرة التنوين والإعراب. أضف إلى ذلك أنَّ اللغة العربية هي أغنى اللغات الساميَّة بالمفردات والثروة اللغوية، وكذلك بالنظام النحوي والصرفي والصيغ الاسمية والفعلية وغير ذلك. ولهذا السبب يُقبل المستشرقون ودارسو اللغات الساميَّة على تعلّمها وإتقان قواعدها في النحو والصرف، ليس من أجل فهمها فحسب، وإنَّما من أجل فهم اللغات الساميَّة الأخرى، وإجراء الدراسات اللغوية المقارنة فيما بينها. فالعربية لغة، جذورها ضاربة في القدم، وتاريخها متأصِّل في العراقة، وإنَّ عدم وجود آثار كتابية أو وثائق مدوَّنة من تلك الحقبة لا يعني بحال من الأحوال عدم وجود اللغة العربية، ذلك أنَّ

(٢) ينظر المصدر نفسه ص ١٠– ١١؛ وكذلك الكتاب المقدس (العهد القديم) على سبيل المثال سفر حزقيال ٢١،٢٧؛ وسفر إرميا ٢٤،٢٥.

الإنسان تكلَّم أوَّلاً ثم كتب بعد ذلك[٣]. ونطمئن إلى ذلك بوجه خاص إذا علمنا أنَّ العرب كانوا قد اشتُهِروا بالرواية الشفوية وتناقل الأخبار وتوارثها خلفًا عن سلفٍ وجيلاً بعد جيل، وقد حفظوا لنا أشعارهم وأخبارهم وأيَّامهم وأمثالهم وتراثهم عن هذا الطريق.

إنَّ المعلومات عن اللغة العربية في تلك الحقبة من الزمن مقتضبة جدًّا، ويكتنفها الغموض، بل هي بكل بساطة غير متوفِّرة أساسًا. ولعلّ طبيعة الحياة الصحراوية القبلية التي كان يعيشها العرب في شبه الجزيرة العربية، وما تقتضيه من تنقّل وترحال طلبًا للماء والمرعى هي السبب في ذلك.

**٢– نشأة اللغة الفصحى:**

تشير مصادر البحث إلى الطابع القبلي للحياة في عصور ما قبل الإسلام، إذ كانت القبائل العربية منتشرة في كلّ مكان من أرجاء الجزيرة العربية، وكان لكلّ قبيلة منها لهجتها الخاصّة بها، ثمَّ ما لبثت تلك اللهجات أن أخذت تتقارب فيما بينها، وتعمل فيها عوامل الامتزاج والتنقيح والاختيار إلى أن ظهر من بينها ما يسمَّى باللغة المشتركة الموحَّدة[٤]. هذه اللغة التي رأى فيها العرب قاسمًا مشتركًا يربط بينهم، ويوحِّد لسانهم، وقد استعملها الشعراء في قصائدهم وتباروا فيها في أسواقهم العامَّة ومنتدياتهم الأدبية، وتناقل الرواة بها أجود

(٣) إنَّ أقدم كتابة عربية وصلت إلينا من حقبة ما قبل الإسلام اكتُشِفت في عام ١٩٠١ في النمارة التي تقع على بعد ١٢٠ كم جنوب شرق دمشق، وهي نقش كُتِبَ على قبر الملك امرئ القيس يعود إلى عام ٣٢٨ م، ويعرف بنقش النمارة.

(٤) ينظر مشكلة العاميَّة والفصحى في تعليم اللغة العربية للأجانب/ مصطفى النحاس عبد الواحد ص٢١– ٢٥ و٥٤ – ٥٥؛ وفصول في فقه العربية/ رمضان عبد التوَّاب ص ٧٦ – ٩٥؛ ومدخل إلى فقه اللغة العربية / أحمد محمد قدور ص ٦٣ – ٦٩.

القصائد وأروع الأشعار في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وأصبحت بذلك لغة الشعر والأدب أو ما يُعرَف بديوان العرب.

إنَّنا لا نستطيع أن نحدّد تمامًا الزمن الذي اتَّخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائي الذي تمثّله الفصحى. هذا الشكل الكامل النضج، سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق، أو من حيث التنوّع الواسع في المصادر والجموع وحروف الجر والعطف وأدوات الاستثناء والتعريف والتنكير والممنوع من الصرف وغير ذلك. إنَّ هذا النظام الصوتي المتكامل، الذي اقتضى أن تحتفظ العربية بأصوات فقدتها أخواتها الساميّات من مثل الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين، والنظام الصرفي الذي يحتفظ بجموع التكسير، والنظام النحويّ الذي يقوم بمجمله على الإعراب، لا نجد له مثيلاً في معظم شقيقات العربية. إنَّه لمن المؤكّد أنَّ العربية الفصحى لم تصل إلى هذه الصورة التامَّة إلاّ بعد أن مرَّت بمراحل طويلة من النمو والتطوّر، وإنْ كانت الوثائق والآثار الكتابية المحدودة التي وصلت إلينا في مرحلة متأخّرة لا تساعدنا على معرفة البدء الحقيقي للعربية الفصحى التي لا نجدها إلاّ متألّقة متداولة في أشعار ما يُعرف بالعصر الجاهلي في أواخر القرن الخامس الميلادي وأوائل السادس منه(٥).

إنَّ النقوش القليلة التي تمّ العثور عليها، والتي تعود إلى القرن السادس الميلادي من مثل نقش زبد المؤرّخ بسنة ٥١٢ للميلاد، ونقش حرَّان اللَّجا المؤرَّخ بسنة ٥٦٨ للميلاد، تُظهر أنَّ الخطّ العربيّ اكتمل في بداية القرن السادس، وأنَّ الفصحى نفسَهَا اكتملت وأخذت شكلَها النهائيّ بنصوص

(٥) ينظر العصر الجاهلي / شوقي ضيف ١١٧– ١٢١.

الشعر الجاهليّ التي يرجِع أقدمُها إلى قُرابة منتصف القرن الخامس. فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل، وأصبحت هناك لغة أدبية عامَّة مشتركة بدأت تنتشر في ربوع الجزيرة العربية وهي التي تُعرف بالفصحى، وبها أخذ الشعراء ينظمون قصائدهم، وأخذ الخطباء يلقون خطبهم.

وعندما نزل بها القرآن الكريم بمعانيه الساميَّة وقيمه الرفيعة وبيانه المعجز عزَّز من مكانتها ورفع من شأنها، وأشاد بتمايزها عن غيرها من اللغات. وليس هناك من شكّ في أنَّ هذه اللغة الفصحى كان يفهمها جميع الناس في شتى القبائل العربية، ولهذا السبب نزل القرآن الكريم بها. ونستنتج من الحديث النبوي الشريف «أُنزِلَ هذا القرآن على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه» أنَّ هناك إشارة إلى انتشار اللهجات بين القبائل، وأنَّ الرسول ﷺ كان يرخِّص قراءة القرآن بما يستغرق هذه اللهجات، لكي يقرأ كلّ بلهجته ريثما تؤاخي لهجة القرآن المشتركة بينهم(٦).

والواقع أنَّ الحديث عن اللغة العربية في ظلّ الإسلام يأخذ منحًى جديدًا، فقد أصبحت لغة الدين والدولة، والعلم والأدب، وبها وُضعت آلاف المصنَّفات والكتب في مختلف مجالات العلم والمعرفة، وإليها تُرجمت خلاصة علوم اليونان والهند والفرس إلى أن أصبحت الركن الأساسيّ في بناء الأمَّة العربية والعامل الأوَّل في التعبير عن مقوِّماتها الفكرية والعلمية والثقافية والحضارية.

**٣– توصيف الواقع اللغويّ الراهن في الوطن العربيّ:**

ليس هناك بقعة في العالم المعاصر تشبه البقعة العربية في غناها اللغوي وتنوعها الحضاريّ والثقافيّ والفُلكلوريّ، فقد عايشت المنطقة العربية عبر الزمن

(٦) ينظر القراءات الشاذّة وتوجيهها النحوي/ محمود الصغير ص ١٨، ٢١.

مختلف العهود والحضارات، وجاورت وخالطت عددًا كبيرًا من الشعوب والأعراق، وقد ترك هذا التجاور والاختلاط – بالتأكيد – أثرَه في الواقع اللغويّ، فكان هذا سببًا مباشرًا في نشوء الازدواجية اللغوية، ومن يدقِّق النظر في الواقع اللغوي الراهن يجد فيه استمرارًا للواقع اللغوي التاريخي الذي كان سائدًا منذ تَكَوُّنِ اللغة العربية الموحَّدة في شبه الجزيرة العربية التي اصطلحنا على تسميتها بالفصحى إلى جانب لهجات القبائل، فما زالت الازدواجية اللغوية على حالها، وما زال هناك لغتان أو على الأصح مستويان لغويان يتميَّز أحدهما من الآخر تميزًا واضحًا، فالمستوى الأوَّل: هو المستوى الرسمي الذي تمثِّله اللغة العربية الفصحى، بقواعدها المعروفة في الأصوات والنحو والصرف(٧). ويستعمل هذا المستوى في التعامل الرسمي والتعليم والبحث العلميّ وفي الكتابات الأدبية والمحاضرات العلمية والثقافية، والعبادات والإعلام.....إلخ. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنَّ هذا المستوى هو الذي نلجأ إليه عند الكتابة، أو كما يسمِّيه البعض باللغة المكتوبة.

أمَّا المستوى الثاني فهو المستوى الذي نستعمله في حياتنا اليوميَّة خارج نطاق التعامل الرسميّ، ونستعمل فيه لهجتَنا المحلِّية التي تعلَّمناها في البيت أو الشارع، وفي هذا المستوى تجري جميع عمليات التفاهم والتعامل الشفهي، وهو الذي يُطلق عليه بعضهم اسم اللغة المنطوقة أو المحكية. لقد كان هذان المستويان سائدين منذ نشأة اللغة العربية وتكوُّنها، فأفراد القبائل العربية كانوا قديمًا يتكلَّمون بلهجاتهم

(٧) مع الاعتراف بحقيقة واحدة وهي أنَّ اللغة العربية التي نستعملها اليوم بوصفها «اللغة الفصحى» ليست تلك اللغة التي وضع لها النحاة والصرفيون القواعد المعروفة، لأنَّ مادتها تغيَّرت تغيُّرًا كبيرًا، وهي مستمرَّة في التغيُّر على ألسنة الناطقين بها، ما دامت الحياة متغيِّرة.

المحلية في موضع سكناهم، وينظمون أشعارهم باللغة الفصحى التي يتوجَّهون بها إلى سائر القبائل على تباعد مضاربهم وتنوّع منازلهم، على النحو الذي هو سائد اليوم تمامًا.

**٤– رأي المستشرقين الألمان بالازدواجية اللغوية العربية:**

يرى المستشرقون الألمان أنَّ اللغة العربية تظهر بوضوح في مستويي تطوّر مختلفين:

أ – اللغة الفصحى أو كما يسمّونها العربية القديمة.

ب – اللهجات المحليَّة أو كما يسمّونها العربية الجديدة.

فالعربية الفصحى لها نمط لغوي قديم جدًّا يمكن مقارنته باللغة الأكّاديّة من نواحٍ كثيرة، ومنها الإعراب الذي تخلَّت عنه الأكّادية فيما بعد، وهي تظهر لنا بما يمكن تسميته بالعربية الكلاسيكية، وهي لغة ذات معايير وقواعد قياسية ثابتة تصل أقدم نصوصها ووثائقها إلى عصر ما قبل الإسلام.

إنَّ الشعر العربيّ القديم الذي جمعه اللغويون العرب ودوّنوه في بداية القرن الثامن الميلاديّ، والذي ترجع روايته إلى النصف الأوَّل من القرن السادس، يُعَدّ، مع القرآن الكريم، الذي تنزَّل بين سنتي ٦١٠ – ٦٣٢م، نمطًا نموذجيًّا للغة العربية الفصحى. وقد استند لغويّو القرنين الثامن والتاسع الميلاديين إلى القرآن الكريم والشعر العربيّ في وضع قواعد اللغة العربية الكلاسيكية، ونظام نحوها وصرفها، حتى غدت مهيَّأة لتصبح لغة الثقافة والحضارة الإسلاميَّة على مرِّ العصور.

أمَّا اللهجات المحلِّيّة أو ما يُسمَّى بالعربية الجديدة فهي تشبه في نشأتها ونمطها اللغويّ التطوُّرَ الذي حصل داخل اللغة الآرامية تمامًا، وهي تواجهنا في

المقام الأوَّل كلهجات عربية محكية في العصر الحاضر، يعود نمطها اللغويّ إلى عصور قديمة تصل إلى القرن التاسع الميلاديّ عندما كان لكل قبيلة لهجتها.

**٥– نشأة اللهجات العربية المحليّة:**

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه: متى نشأت اللهجات العربية المحلِّيّة (العربية الجديدة)؟ ومتى توقَّفت العربية الفصحى عن أن تكون لغةً محكيَّة في الحياة اليومية، لتقتصر في الاستعمال على الأدب والعلم وإدارة الدولة، وتبقى حيَّة في التعامل الرسميّ فقط؟ وللإجابة عن هذين التساؤلين نبادر إلى القول: إنَّه لمن الصعب جدًّا إعطاء حكم دقيق حولهما، لأنَّ المصادر والوثائق الكتابية القليلة التي وصلتنا من مرحلة ما قبل الإسلام وما بعده بقليل لا تقدِّم لنا صورة واضحة أبدًا، ولا تعطينا إجابة شافية عن الواقع اللغوي الحقيقيّ في تلك الحقبة، وذلك بسبب خصوصيات ضبط الكتابة العربية Orthographie، ويسوق لنا المستشرقون الألمان رأيين مختلفين أو فرضيَّتين حول هذا الموضوع، وهما:

**١– الفرضيّة الأولى**: تقول بأنَّ الازدواجيَّة اللغويَّة كانت موجودة على حَدٍّ سواء في معظم مدن الجزيرة العربية مثل مكَّة وغيرها، وكذلك عند القبائل العربية البدوية في عصر الرسول محمّد ﷺ، وربَّما قبله بأزمنة، إذ كانت هناك اللهجات المحليَّة التي اصطلحنا على تسميتها بنمط العربية الجديدة، أيّ العربية التي يُنطق بها دون نهايات إعرابية. أمَّا اللغة الفصحى فكانت تقتصر على الشعر، وهي تمثِّل نمط العربية القديمة، وهذه تُكتسب وفق تقاليد معيَّنة، وهي تختلف قليلاً أو كثيرًا عن لغة الحياة اليوميَّة المتداولة.

ويمثِّل هذه الفرضية عدد من المستشرقين الألمان أمثال أوغست فيشر وكارل فوللرس وأنتون شبيتالر وهانس فير وغيرهم، الذين يستندون قبل كلّ شيء إلى

طريقة ضبط الكتابة العربية Orthographie التي تَكتب – كما هو معروف – الحروف فقط، وتهتمّ جزئيًّا بالحركات الطويلة، وتهمل تمامًا كتابة الحركات القصيرة. فلو كانت اللغة العربية الفصحى (نمط العربية القديمة) هي السائدة فعلاً حتَّى نهاية القرن السابع الميلاديّ سيادةً مطلقة، لَوَجَبَ أن تكتب منطقيًّا النهايات الإعرابيَّة في حالة تنكير الاسم (-un,-in,-an) وكذلك علامة التأنيث (-at) بما يناسبها من علامات، كما يحدث حقيقة في اللغة العربية الجنوبية (Altsuedarabisch). والواقع أنَّ النقوش العربية التي وصلت إلينا من حقبة ما قبل الإسلام، لم تُكتَبْ فيها علامة التنوين (-n) ولا علامة التأنيث (-t)، وهذا ما يمكن تفسيره ببساطة بأنَّ طريقة الكتابة العربية تثبت بوضوح انتشار نمط العربية الجديدة، أي اللهجات المحليَّة، والدليل على ذلك كتابة علامة التأنيث في نهاية الكلمة في ذلك الوقت بالهاء (-ah) أو (-a) بالوقف، وليس بـ (-atu) أو (-atun) أبدًا[٨].

٢– الفرضية الثانية: وتنصّ على أنَّه كانت هناك لغة واحدة في زمن الرسول محمّد ﷺ والعقود التي تليه، وهي اللغة العربية الفصحى (نمط اللغة العربية القديمة). وكانت هذه اللغة تُستعمل في الشعر والحياة اليوميَّة على حدٍّ سواء، ولم يكن هناك اختلاف بين اللغة التي نعرفها من القرآن الكريم والشعر الجاهلي وبين اللغة المحكية في ذلك الوقت.

أمَّا اللهجات المحليَّة (نمط العربية الجديدة) فنشأت بعد الفتح الإسلاميّ لبلاد الشرق الأدنى وشمال إفريقية، وإيجاد نظام الخلافة, ودخول شعوب هذه

(٨) ينظر كتاب Handbuch der Arabischen Dialekte, von W.» Fischer und O. Jastrow, S. ١٦«.

البلدان في الإسلام. ونتيجة للاحتكاك الذي حصل بين العربية وبين لغات الشعوب التي كانت تقطن هذه المناطق كالآراميّة واليونانيّة والقبطيّة والبربريّة والرومانيّة، توقَّفت اللغة العربية الفصحى (نمط العربية القديمة) عن أن تكون لغة محكيّة، وعندها فقط نشأت اللهجات المحليّة (نمط العربية الجديدة). ويمثِّل هذه الفرضية كلّ من تيودور نولدكه ويوهان فوك، ويوسوا بلاو وغيرهم. فيرى نولدكه مثلاً أنَّ عملية ضبط الكتابة العربية Orthographie وُضِعَتْ في الأساس لتطابق لفظ اللهجات المحليَّة (نمط العربية الجديدة) من حيث عدم كتابة النهايات الإعرابية (-n) وعدم كتابة علامة التأنيث (-at) ممَّا يمكن تفسيره بأنَّ كلّ كلمة لم تكن تُكتب في شكلها السياقي، وإنّما منفصلة عن غيرها في وضعية الوقف (Pausalform)، وهكذا فإنَّ المرء كان يكتب – كما يرى نولدكه– لفظ كلّ كلمة في وضعية الوقف مفصولة عن السياق الذي تقع فيه. وهذه الفرضية نجدها مطابقةً لتقاليد اللغويين العرب التي لا تقرّ إلاَّ بوجود شكل واحد للغة، وهو اللغة العربية الفصحى (الكلاسيكية) بنمطها اللغوي القديم. أمَّا اللهجات المحليَّة (النمط اللغوي الجديد للعربية) فما هي برأيهم إلاَّ لهجات محكيَّة لا يمكن أن تكون أكثر من وسائل تعبير خاطئة أو عاميَّة فاسدة نشأت بعد اعتناق غير العرب الإسلام، واختلاط الشعوب بعضها ببعض خارج الجزيرة العربية.

إنَّ اللحظة الحاسمة في ولادة اللهجات المحلِّيَّة (نمط العربية الجديدة) كانت في اختفاء حركات الإعراب القصيرة من أواخر الكلمات، وباختفائها تكون الأسماء قد فقدت كامل نظام تصريفها الإعرابيّ. ويمكن أن نستنتج من كتابة أسماء الأعلام العربية في نقوش الأنباط الآرامية أنَّ نظام الإعراب والحركات

الإعرابية كان قد بدأ يفقد وظيفته في المدة الواقعة بين ٣٠٠ ق. م – ٣٠٠ بعد الميلاد في اللغة العربية الفصحى (نمط اللغة العربية القديمة) وتحطَّم تمامًا في نهاية هذه المرحلة. ولهذا السبب فإنَّ اللهجات المحليَّة يمكن أن تكون قديمة جدًّا، مثلها مثل أقدم وثائق الشعر العربي القديم الذي وصلنا على أنَّه يمثِّل النموذج الأعلى للغة العربية الفصحى.

وتظهر آثار اللهجات المحليّة الجديدة في كتابات القرنين التاسع والعاشر الميلاديين في الخروج عن القواعد المقررة وظهور الانحرافات اللغوية التي تخالف الاستعمال اللغوي، وهذا يبيِّن لنا أنَّ شكل اللهجات العربية الحالي قد تكوَّن في هذين القرنين، وبدأ منذ ذلك الحين تدفّق السيل الغزير من الرسائل والمصنَّفات التي تعالج أخطاء الشعب اللغوية تحت ما يُسمَّى بكتب لحن العوام، هذه الكتب التي تُعدّ مصدرًا هامًّا للبحث في اللهجات العربية المحليَّة. وما يشار إليه ها هنا أنَّ هذا النوع من المصنَّفات لم يظهر لأنَّ الشعب لم يكن يتكلَّم في حياته اليوميَّة اللغة العربية الفصحى، بل لأنَّ استعمال اللهجات العربية الجديدة كان قد تسرَّب إلى لغة الكتابة أيضًا. إنَّ مثل هذا النوع من «العربية ذات الأخطاء» بنظر اللغويين العرب، تتمثَّل في مجموعة كبيرة من النصوص التي صنِّفها عدد من المؤلِّفين الذين لم يكونوا يتقنون اللغة العربية الفصحى جيِّدًا، وبسبب وقوع هذه النصوص بين اللغة السليمة قواعديًا (الفصحى) وبين اللهجات المحكية، تصنَّف على أنَّها من العربية المتوسِّطة[٩].

ومهما يكن الأمر فإنَّ الغموض مازال يحيط بالأسباب الحقيقيَّة التي أدَّت

(٩) ينظر: Handbuch der Arabischen Dialekte, W. Fischer u. O. Jastrow, S.١٨.

إلى نشوء اللهجات العربية المحليَّة، وتنوُّعِها بهذا الشكل الفريد من نوعه في العالم، ومازلنا نجهل أسباب التطوُّر التي حصلت في كلّ لهجة على حدة، والعوامل التي أسهمت في توجيهِها هذه الوُجْهَة أو تلك. إنَّ اللهجات المحليَّة العربية تُظهِرُ على كلّ حال الاتِّجاهَ للتَّكيُّف بعضها مع بعض، وتستجيب باستمرار للتَّأثير المتزايد فيها من اللغة العربية الفصحى. فمتى يأتي اليوم الذي تزول فيه الفروق بين هذه اللهجات، وتصبح فيه موحَّدة؟

**٦– دراسة اللَّهجات العربيَّة في الجامعات الألمانيَّة:**

لا بدَّ من الإشارة في البداية إلى أنَّ ألمانية بدأت بدراسة اللغة العربية في مرحلة مبكرة نسبيًّا ترجع إلى العصور الوسطى، وكان ياكوب كريستمان J. Christmann (١٥٥٤– ١٦١٣) أوَّل من حاول تدريس اللغة العربية ونشرها في ألمانية، فقد وضع كراسًا لتعليم كتابة الحروف العربية، وترجم أجزاءً من الإنجيل إلى العربية للتمرّن على القراءة، وصنَّف فهرسًا موجزًا لمجموعة من المخطوطات العربية التي كانت في حوزة أحد النبلاء الألمان. ثمّ ما لبثت الدراسات العربية أن نشطت فيما بعد، وقد كان لكلّ من فرايتاك Freitag، وكاسباري Caspari، ونولدكه Noeldeke، وبرجشتراسر Bergstraesser، وكارل بروكلمان، وغيرهم دور بارز في تطوير الدراسات العربية في ألمانيا وإغنائها، وقد أظهر المستشرقون الألمان القدامى اهتمامًا كبيرًا بالتراث العربيّ وقاموا بتحقيقه ونشروا عشرات الكتب منه. وقد تعدَّدت الاتجاهات التي سارت بها دراسات اللغة العربية وطرق تعليمها(١٠).

(١٠) إنَّ ما تجدر الإشارة إليه هنا أنَّ معظم الجامعات الألمانية التي تقوم بتدريس اللغة العربية تبدأ بالفصحى أوَّلاً، إذ يتلقَّى الدارسون قواعد اللغة العربية الفصحى، ويتعلَّمون قراءة نصوص التراث وتحليلها، ثمَّ تأتي بعد ذلك مرحلة دراسة اللهجات لمن يريد. والاستثناء الوحيد في ذلك هو جامعة أمستردام في هولندا، إذ تبدأ دراسة اللغة العربية فيها بدراسة اللهجة المصرية لعدد من الفصول الدراسيَّة، ثمَّ بعد ذلك تأتي دراسة اللغة الفصحى.

أمَّا ما يسمَّى بعلم اللهجات العربيَّة أو بArabische Dialektologie فالمعروف أنَّ للبلدان الناطقة بالألمانية فيه تقاليد عريقة، تعود جذورها إلى أكثر من مئة سنة خلت، فإلى Stumme وSpitta وKampffmeyers وSocin وReinhardt تُنسب أولى الأعمال التي دُوِّنت حول بعض اللهجات العربية. فمنذ ذلك الحين بدأ المستشرقون الألمان بالاهتمام باللهجات العربية، وقد ازداد هذا الاهتمام بعد الحرب العالمية الثانية خاصَّة، مع التقدّم التقني الهائل الذي حقَّقته وسائل الاتِّصال، وسهولة الحركة والانتقال بين البلدان، وتشجيع مراكز البحث العلمي على القيام بأبحاث ميدانية في البلاد العربية. واستطاع هذا العلم أن ينهض على قدميه في السنوات الأخيرة، وأن يحقِّق تقدّمًا كبيرًا، فبعد أن كانت نقاط صغيرة فقط مضاءة في خضم بحر اللهجات الكبير، توسعت الدراسات في أيَّامنا هذه حتى شملت لهجات محلية كثيرة(١١). ولعلّ أهمّ جامعتين في ألمانية مختصَّتين حاليًا بالبحث في اللهجات العربية هما جامعتا إرلنغن Erlangen وهايدلبرغ Heidelberg، فهما تهتمان بالعديد من مشاريع دراسة اللهجات في البلاد العربية(١٢).

إنَّ الهدف الذي يسعى علم اللهجات العربية في ألمانية Arabische Dialektologie إلى تحقيقه، ليس زرع بذور الشقاق بين الناطقين بالعربية، ولا الدعوة إلى الترويج لاستعمال اللهجات العامية بدلاً من الفصحى أبدًا. إنّ ما

(١١) ينظر على سبيل المثال فهرس كتاب Arabische Dialektgeographie, von P. Behnstedt u. M. Woidich ففيه أسماء المئات من الكتب التي تدرس اللهجات العربية.

(١٢) تقوم الجامعتان حاليًا بالعديد من المشاريع لدراسة اللهجات العربية في كلّ من فلسطين والمغرب وتونس ولبنان وسورية، فعلى سبيل المثال نذكر الدراسة التي تعدّ حول لهجة «محردة» في سورية، ولهجة «صور» في لبنان.

يهدف إليه حقيقة هو دراسة هذه اللهجات المحلِّية التي يتكلّمها الناطقون بها دراسة علمية موثّقة كما هي في وضعها المنطوق، إذ غالبًا ما تُجرى هذه الدراسات على شكل أبحاث ميدانية يقوم فيها الباحثون بإعداد عدد كبير من التسجيلات الصَّوتية للناطقين بهذه اللهجة أو تلك، ثمَّ يبدؤون بعد ذلك بدراستها، فيصفون أوَّلاً نظامها الصَّوتي وما فيها من أصوات وحركات، ثمَّ ينتقلون بعد ذلك إلى دراسة نظامها الصَّرفي والنحويّ وما فيها من ضمائر وأسماء وأفعال وكلمات مميِّزة لها، وأخيرًا يختمون هذه الدراسة بنشر النصوص التي قاموا بتسجيلها وترجمتها إلى لغتهم، ومن ثمّ إعداد قوائم بالمفردات والثروة اللغوية الواردة في هذه النصوص. إنَّ أهمّ ما يتَّسم به علم اللهجات العربية في ألمانية هو هذه الأبحاث الميدانية الوصفية الدقيقة التي يقوم بها.

ومن هذا المنطلق تقسم اللهجات العربية إلى خمس مجموعات كبيرة، تتميّز كلّ منها بعدد من الخصائص والسمات المشتركة في الأصوات والنحو والصرف والمفردات، وهي:

١- لهجات بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن).

٢- لهجات العراق وبلاد الرافدين.

٣- لهجات اليمن والجزيرة العربية.

٤- لهجات وادي النيل (مصر والسودان).

٥- لهجات المغرب العربيّ وشمال أفريقية.

إنَّ كل مجموعة من هذه المجموعات الكبيرة تقسم بدورها إلى مجموعات أصغر، لها سمات مشتركة تميّزها من غيرها، وكلّ مجموعة من هذه المجموعات التي هي أصغر تقسم بدورها إلى عدد كبير من اللهجات التي تصنَّف تحتها، أو تنتمي إليها. فمن المعروف أن لكلّ مدينة لهجة خاصَّة بها، وهي تتميّز من غيرها، وكثيرًا ما يكون في المدينة الواحدة أو المنطقة الواحدة أكثر من لهجة،

فلهجات بعض المدن السورية مثل دمشق أو حلب أو حمص أو دير الزور أو غيرها ليست واحدة، ولكلّ منها خصوصيَّة محدَّدة، وإن كانت تصبّ في الإطار العام في مجموعة اللهجات السورية.

ولو أخذنا نتائج الأبحاث التي أُعدَّت حول اللهجات في سورية مثلاً، لتبيَّن لنا أنَّ سورية هي ملتقى اللهجات العربية حقيقة، ففيها ستّ مجموعات لهجيَّة كبيرة، نذكر منها على سبيل المثال مجموعة اللهجات الشاميَّة الحضريَّة، وهي تشمل في الواقع، إضافةً إلى لهجات سورية، بعض اللهجات اللبنانية وجزءًا من اللهجات الفلسطينيَّة. ويتفرَّع عن هذه المجموعة الكبيرة أكثر من خمس وعشرين لهجة في سورية فقط. وتأتي بعدها مجموعة كبيرة ثانية تشمل اللهجات البدوية التي تربط سورية بالسعودية والأردن والعراق. أمَّا المجموعة الثالثة فهي لهجات حوران التي تشبه اللهجات الفلسطينيَّة الريفيَّة إلى حدّ بعيد، والعنصر البدوي فيها واضح تمامًا. وهناك مجموعات لهجيَّة صغيرة مردّها إلى الطبقة العربية الأولى، أي إلى العرب الذين استوطنوا المنطقة قبل الإسلام، وتوجد هذه اللهجات في المنطقة الممتدَّة من القريتين إلى القامشلي، وبعضها يقترب من اللهجات العربية الأناضولية كلهجة مدينة ماردين، وبعضها مختلط باللهجات البدوية كلهجة مدينة دير الزور(١٣).

أمَّا الفروق الأساسيَّة بين هذه اللهجات فتخرج عن موضوع بحثنا، ويحتاج توضيحها إلى دراسة مستقلّة، ونكتفي هنا بالإشارة على سبيل المثال إلى أنَّ الفارق الحاسم بين لهجات الحضر ولهجات البدو على المستوى الصَّوتي يكمن في

(١٣) ينظر الأطلس اللغوي لسورية الذي وضعه الباحث الألماني بيتر بنشتيد باللغة الألمانية وعنوانه: Sprachatlas von Syrien (Kartenband + Beiheft), Peter Behnstedt, Harrassowitz Verlag, ١٩٩٧. إضافةً إلى الحوار الذي أجريته معه، ونشر في صحيفة الحياة، العدد ١٢٩٣٣ تاريخ ١٩٩٨/٨/١.

طريقة نطق حرفي القاف والكاف، وتختصّ اللهجات البدويَّة بأنَّها مازالت تحتفظ بالتَّمييز بين المذكَّر والمؤنَّث عند جمع الأفعال والضمائر، فهي مازالت تستعمل (هُمْ) للمذكَّر و(هُنَّ) للمؤنَّث، على النَّقيض من أغلب اللهجات الحضرية التي تكتفي بـ (هِنَّ) للاثنين معًا.

إنَّ البحث في اللهجات العربية في ألمانية قد قطع أشواطًا متقدِّمة، فقد أُسِّست في عام ١٩٩٣ الجمعيَّة الدولية للهجات العربية التي تُعرف باسم AIDA (Association Internationale de Dialectologie Arabe) وعقدت مؤتمرها الأوَّل في باريس بحضور عدد كبير من المستشرقين والمشتغلين باللهجات العربية، ثمَّ توالى بعد ذلك عقدُ المؤتمرات تباعًا بمعدَّل مرَّة كلّ سنتين تقريبًا، ليُعقَدَ حتَّى الآن سبعة مؤتمرات(١٤).

وقد عكف علماء اللهجات الألمان منذ وقت مبكِّر نسبيًّا على وضع الأطالس اللغوية (وهي خرائط يبيَّن عليها توزّع اللهجات المحليَّة، والاختلافات فيما بينها في الأصوات والصرف والثروة اللغوية). فوضع برجشتراسر Bergstraesser في عام ١٩١٥ أطلسًا لغويًّا لسورية وفلسطين، حاول فيه أن يوزِّع اللهجات المحليَّة على الخرائط حسب طريقة نطقها في كل من سورية وفلسطين. ومع اتصاف هذا الأطلس اللغويّ بالبدائية فإنَّه يبقى له فضل السبق

(١٤) وهي: المؤتمر الأول في باريس عام ١٩٩٣، والمؤتمر الثاني في كامبرج عام ١٩٩٥، والمؤتمر الثالث في مالطا عام ١٩٩٧،والمؤتمر الرابع في مراكش عام ١٩٩٩، والمؤتمر الخامس في كادس (إسبانية) عام ٢٠٠٢، والمؤتمر السادس في تونس عام ٢٠٠٤، والمؤتمر السابع في فيينا (النمسا) عام ٢٠٠٦.

(١٥) ينظر: Sprachatlas von Syrien und Palaestina, G. Bergstraesser. In: ZDPV XXXVIII,١٦٩-٢٢٢; sowieArabische Dialekgeographie, von Peter Behnstedt, u. Manfred Woidich, Brill. Leiden. Boston ٢٠٠٥, S. ٤-٧.

التاريخي[١٥]. ثمَّ توالت بعد ذلك سلسلة من الأطالس اللغويَّة التي يظهر فيها التوزّع اللغوي للهجات المحليَّة الموجودة في البلاد العربية المعدّة لها، فكان هناك أطلس لغويّ شامل لمصر، أعدّهPeter Behnstedt و Manfred Woidisch في عام ١٩٨٥. وكان هناك أطلس لغويّ لشمال اليمن، وآخر لتونس، وأيضًا للمغرب[١٦]. إلاَّ أنَّ أهمّ أطلس لغويّ شامل أُعدّ حتَّى الآن كان من نصيب سورية، فقد احتاج الباحث بيتر بنشتيد إلى أكثر من عشر سنوات للإعداد لهذا الأطلس اللغوي الذي صدر في عام ١٩٩٧ بعد إقامة في سورية استغرقت خمس سنوات (١٩٨٥ – ١٩٩٠) أمضاها الباحث في جمع مادّة البحث، ورصد جميع اللهجات والمجموعات اللغوية الموجودة في جميع المناطق والقرى السورية، لتبدأ بعدها المرحلة الثانية، وهي مرحلة رسم الخرائط بالحاسوب وتوزيع الموادّ اللغوية عليها. وقد عمد في هذا الأطلس اللغوي إلى وضع خرائط كبيرة شاملة لجميع المناطق السورية، بلغ عددها /٥١٨/ خريطة تتوزَّع على ١٠٣٧ صفحة، وحدَّد عليها الاختلافات والفروق في نطق الحروف والأصوات، وأشار إلى التباين والتنوّع في الصيغ الصرفية ومفردات الثروة اللغويّة[١٧].

**٧– تحديَّات الازدواجيّة اللغوية في عصر العولمة:**

الازدواجيّة اللغويّة ظاهرة طبيعيّة، وهي موجودة في كلّ اللغات، وليس هناك لغة واحدة في العالم يكتب فيها ناطقوها كما يتكلَّمون، وإنَّما الفارق بين لغة الكتابة واللهجات المحكيّة قد يتَّسع أو يضيق وفقًا لطبيعة اللغة وصعوبة قواعدها ومعطيات واقعها الاجتماعيّ والسياسيّ والفكريّ والثقافيّ.

---

(١٦) ينظر Arabische Dialektgeographie (Eine Eifuehrung), von Peter Behnstedt, u. Manfred Woidich, S. ٥-٧.

(١٧) ينظر : Sprachatlas von Syrien (Kartenband + Beiheft), Peter Behnstedt, Harrassowitz Verlag, ١٩٩٧.

والواقع أنَّ البون الشاسع بين لغتنا الفصحى ولهجاتها المحكيَّة مردّه إلى أنَّ الطفل يكتسب اللغة المحكيَّة في البيت أوَّلاً مع الحليب الذي يرضعه، إذ ينمو وينشأ ويترعرع مع هذه اللغة، ثمَّ يبدأ بعد ذلك بتعلّم الفصحى ويتلقَّى بعض مبادئ القراءة والكتابة بها في المدرسة، بعد أن يكون عمره قد أصبح خمس أو ستّ سنوات على الأقلّ، عن طريق التَّلقين وشرح قواعد النحو النظريّة التي لا تُقدَّم له في أغلب الأحيان على أمثل وجه.

إنَّ الازدواجيَّة اللغوية الموجودة في البلاد العربية تختلف عن الازدواجيّة اللغوية الموجودة في البلاد الأخرى، لأنَّه ليس هناك بقعة في العالم مرَّت بالظروف والأحوال والمؤثِّرات نفسها، التي مرّت بها المنطقة العربية، فالتطوّر الذي حدث داخل اللغة العربية، وامتداد الرقعة الجغرافية للوطن العربيّ واتِّساعها، وتنوّع الشعوب والأعراق فيها، فضلاً عن التَّاريخ المديد للعربية[١٨]، والمراحل والعصور الطويلة التي مرَّت على المنطقة بكلّ ما فيها من مآسٍ ومحن وأحداث جسام، كلّ ذلك أدَّى إلى توسيع الهوَّة بين اللغة الفصحى ولهجاتها المحكية وتعميق هذا التباعد بينهما. فالازدواجيَّة اللغوية كانت موجودة في العربية منذ عهودها الأولى، ومازالت موجودة فيها على الدوام، ولم تفارقها عبر الزمن، ويبدو أنَّها قدَرُنا الذي لا مفرَّ منه، إذ علينا أن نسلّم بهذا القدَر، فنستعمل الفصحى للكتابة والتعامل الرسميّ، ونستعمل اللهجات المحكيَّة للحياة اليوميَّة

(١٨) يقسم المستشرق الألماني فيشر اللغة العربية إلى أربع مراحل أساسية وهي: ١- مرحلة ما قبل الكلاسيكيَّة. ٢- مرحلة اللهجات العربية القديمة. ٣- المرحلة الكلاسيكيَّة. ٤- مرحلة ما بعد الكلاسيكية. ينظر كتاب: Grundriss der Arabischen Phylologie, von Wolfdietrich Fischer, Bd. I, S. ٣٦ – ٥٠.

والمواقف غير الرسميّة.

إنَّ اللهجات العربية المحكيَّة لم تتحوَّل أبدًا إلى لغة مكتوبة، ولا يمكن أن تتحوَّل، لأنَّ نظام الكتابة المتداول الذي يُهمل كتابة الحركات لا يساعد على ذلك أبدًا، أضف إلى ذلك أنَّ هناك حركاتٍ في اللهجات المحليَّة غير متوفّرة في العربية الفصحى مثل: /e/ و/o/ وغيرها من الحركات المركّبة. ولهذا السبب بقيت اللهجات العربية المحلية وستبقى محصورة في نطاق الاستعمال بالأحاديث والتَّعابير الشفوية وفي المواقف الحياتية اليوميّة بصورة أساسية(١٩). إنَّ كل الدعوات التي طُرحت من أجل إحلال العاميَّات محلّ الفصحى لم تنجح، ولن تنجح لأنَّ هذه العاميّات عاجزة عن أن تفي بكل حاجات العقل والنفس، وأن تنهض برصدها وتتبّعها ثمّ بالتعبير الجمالي عنها. إنَّها عاجزة عن أن تُنشئ أدبًا له أفكارُهُ ومثلُهُ، لأنَّ أكثر المثقَّفين والدارسين على الساحة العربية غير مقتنعين بمثل هذه الدعوات، ولم يلقُوا إليها آذانًا صاغية(٢٠).

(١٩) إنَّ الاستثناء الوحيد الذي حصل في هذا المجال هو اللغة المالطية التي طوَّرت لهجتها المحليَّة العربية إلى لغة رسميَّة مكتوبة مبتعدة في ذلك عن اللغة العربية الفصحى.

(٢٠) ارتبطت الدعوة إلى العاميَّة في بداية عهدها في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العِشرين بالمستعمر الأجنبي أوَّلاً، كما هو الحال في كلٍّ من الجزائر ومصر ولبنان. فقد قام المهندس الإنكليزي بمصر ويلكوكس في عام ١٨٩٣ بإلقاء محاضرة دعا فيها إلى إحلال العاميَّة محلّ الفصحى في الكتابة والتأليف. ثم ما لبثت هذه الدعوة أن انتقلت فيما بعد إلى أبناء الوطن المحلِّيين في بعض الأقطار العربيَّة من أمثال سلامة موسى في مصر الذي ربط دعوته إلى هجر الفصحى بدعوته العامَّة إلى إصلاح المجتمع وتقدّم الأمَّة، وسعيد عقل في لبنان الذي حاول أن يطابق بين الكلمة المنطوقة والرمز المكتوب، فدعا إلى إبدال الأحرف العربية باللاتينية وانتهى به الأمر في خاتمة المطاف إلى أنَّ اللغة الفصحى لغة ميِّتة.

لقد اتَّخذ الهجوم على اللغة الفصحى في بعض الأقطار العربية عدَّة أشكال نجملها فيما يلي:

١- التشكيك في اللغة الفصحى وعدم قدرتها على مواكبة حاجات العصر، فهي لا تصلح للعلم، وليست لغة تكنولوجيا، وإنَّها لغة الكتب الصفراء، وعلينا لذلك أن نستعمل اللغات

لقد حُسمت مسألة الصراع بين دعاة العاميّة وأنصار الفصحى لمصلحة الفصحى، ولا أعتقد أنَّه كان في الواقع صراعًا بما تحمله هذه الكلمة من معنى، وإنَّما كانت نزوة أو محاولة من بعض ضعاف النفوس لترسيخ واقع يسوده التخلّف والانحطاط، وتنتشر فيه الأميَّة والجهل، وينشب فيه الطامع مخالبه.

ليست المشكلة في الازدواجية اللغوية الهوَّةَ الواسعةَ بين الفصحى والعاميَّة، بل انتشار الأميّة في مختلف أرجاء الوطن العربيّ. صحيح أنّ هناك فارقًا كبيرًا بين وجهي هذه اللغة المنطوق والمكتوب، ولكنَّ هناك مستويات انتقالية مختلفة أيضًا، يمكن أن نطلق عليها اسم العربية المتوسِّطة، وهي تقع بين الفصحى ولهجاتها العاميَّة. إنَّ حلَّ مشكلة الازدواجية اللغوية لا يكمن بتبسيط قواعد اللغة الفصحى، ومحاولة تجديد النحو، وإنَّما يكون بنشر التعليم في كافة المناطق وتطوير طرائقه ومناهج تدريسه، لأنَّ من يعيش في محيط تسود فيه اللغة الفصحى، ويألف التعاملَ والقراءة ومتابعة برامج التلفزة وأفلام السينما ونشرات الأخبار بها، يستطيع – دون شكّ – التعايش معها بكلّ سهولة ويسر، وتصبح عندها اللهجة المحليّة مجرّد وسيلة

---

الأجنبية كالإنكليزيَّة والفرنسيَّة. (نذكّر هنا بالقرار الوزاري الذي كان قد صدر عام ١٨٨٩ في مصر والقاضي بأن تكون لغة التعليم في المدارس المصرية اللغة الإنكليزية).

٢– اتِّهامها بالجمود والتَّعقيد والبداوة، وإلقاء مسؤوليَّات التَّخلُّف والانحطاط عليها.

٣– الدعوة إلى إبدالها بالعاميَّة التي تتمتَّع بمزايا الحيويَّة والسهولة والمرونة والقدرة على التَّعبير عن مطالب الحياة العصرية، فهي لغة الحياة وهي تصلح لتثقيف الجماهير وتعليم الأميِّين.

٤– التَّنفير من اللغة الفصحى بدعوى الصُّعوبة في النطق والأصوات والنَّحو والصَّرف، والقصور عن أداء رسالتها في هذا الزَّمن الذي تتعاقب فيه الأحداث، وتتدفَّق المعلومات تدفقًا متسارعًا.

إنَّ من يمعن النظر في هذه الدعاوى والاحتجاجات يجد أنَّها لا تصمد أمام المناقشة، ويسهُل عليه ردّها لهشاشتها وسطحيّتها وعدم جدواها في الإقناع، فلا تحتاج قدرة اللغة العربية على التعبير وعلى نقل مصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة إلى إثبات. فأين الترجمات التي تمَّت في العصر العباسيّ الأوَّل؟ ومَن الذي استوعب المعارف العلميَّة التي كانت لدى اليونان والهنود والفرس وغيرهم؟

ينظر : مشكلة العامية والفصحى ص ٧٤.

تعبير ممجوجة لا ترقى إلى مستوى التعامل الراقي.

إنَّ الهوَّة السحيقة بين اللغة الفصحى ولهجاتها المحكية في عصرنا الراهن بدأت تتقلَّص تدريجيًّا بتأثير انتشار التعليم وتراجع الأميّة، والدور المتنامي لوسائل الإعلام ومحطَّات التّلفزة والفضائيّات، ممّا يساهم في تبادل الأدوار، فبعد أن كانت اللهجات المحكيّة تهدِّد اللغة الفصحى بسبب انتشار الجهل والأميَّة والتقوقع وعدم توفّر إمكانات التواصل والتلاقي، أصبحت الفصحى في أيّامنا هذه هي التي تهدّد اللهجات المحكية، وتضيِّق عليها الخناق بسبب التقدّم الهائل في وسائل الاتّصال وتقنية الحصول على المعلومات والأفكار، فقد زالت الحدود والحواجز، وأصبح التواصل بين بلدان المشرق العربيّ ومغربه ميسَّرًا، فنحن نشاهد في كلّ يوم على الفضائيّات ومحطَّات البث المرئيّ البرامج التي يتبادل فيها المتحاورون الآراء باللغة الفصحى من كلّ بقاع الوطن العربيّ الكبير بكل سهولة ويسر.

**٨– مقترحات وتوصيات:**

وفي نهاية هذا البحث لا بدّ من أن نتقدّم ببعض المقترحات والتوصيات التي نعتقد أنَّها يمكن أن ترتقي باللهجات المحلية إلى مرتبة الفصحى، وتقلّص الفروق الكبيرة بينهما، وهي:

١– نشر التعليم في كافة أرجاء الوطن العربي وبين مختلف الفئات، وضرورة التخلّص من الأميّة لأنَّ من يقرأ كلّ يومٍ باللغة الفصحى لن يجد بالتأكيد صعوبة في إتقان هذه اللغة، ولن يعاني من هذه الهوَّة بين وجهي اللغة المنطوق والمكتوب.

٢– إعادة النظر في مناهج تعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية وتطوير طرائق تعليم اللغة العربية بما يتناسب والتطوّرات الحاصلة في ميادين العلوم المختلفة، مستفيدين في ذلك من التقنيات المتطوّرة في عصر العولمة، ومن المناهج الحديثة لتعليم اللغات الأجنبية الغنيّة بالصور والخرائط والأشكال المختلفة والمجسَّمات، إضافةً إلى أشرطة التسجيل الصوتية والمرئيَّة.

٣– العمل على أن تكون جميع البرامج والأفلام والمسلسلات والمسرحيَّات

التي تقدّمها وسائل الإعلام المرئيّ والمسموع باللغة العربية الفصحى، لأنّ ظاهرة المسلسل المِصريّ أو البرامج التي تقدّم بالعاميَّة تسهم إلى حدّ بعيد في تعميق حالة الازدواجية اللغوية، وكذلك الأمر في المسلسلات والأفلام الأجنبيّة التي تُعرَض بدون ترجمة شفوية. فكل مجالات التلفزة والسينما يجب أن تكون محجوزة للفصحى وتؤدَّى بها. وهنا يشار إلى أنَّ وسائل الإعلام ساهمت دون شكّ في تقريب الفصحى من جماهير العاميَّة.

٤– تشجيع دراسة اللهجات المحلية: لا بدّ من تشجيع الأبحاث حول اللهجات المحلية، إذ لا يجوز أن نترك البحث في هذا المجال حكرًا على المستشرقين وعلماء اللهجات الأجانب، لأنَّ اللهجات في الواقع هي ضروب محلّية من اللغة الرسمية أو النموذجية أو الفصحى. ولهذا فنطاقها محدود، وهي لا تصلح للاستعمال إلاّ في مناطق انتشارها، ولا يمكن أن نصوغ بها كتابًا علميًّا قابلاً للفهم من قبل جميع الناطقين بالعربية، وليس هناك أية فائدة من اتّساع مجالها، ولولا وجود اللغة الفصحى لما استطاع العرب أن يفهم بعضهم بعضًا. إنَّ دراسة اللهجات يمكن أن تقدّم لنا مادّة غنية للبحث العلميّ، فربَّما نستطيع عن طريقها أن نفهم الكثير من تاريخ هذه اللغة وما طرأ عليها من تغييرات صوتية وصرفية ودلالية، وما دخلها من كلمات معرَّبة أو أعجميّة، لأنَّ اللهجات – كما نعلم – مملوءة بالكلمات الدخيلة من شقيقات العربية كالأكاديّة والآراميّة والعبريّة والسريانيّة أو من غيرها من اللغات كاليونانيّة والفارسيّة والتركيّة...إلخ.

كما أنَّ دراسة اللهجات المحليَّة قد تساعدنا على معرفة تاريخ تعريب بعض الأقطار العربية وعلى معرفة أصل بعض القرى أو المناطق أو الأقاليم عن طريق تحليل الكلام ورصد المفردات المستعملة. وتبيّن لنا الأطالس اللغوية أنَّه لا يوجد حدّ فاصل بين منطقة لهجية وأخرى، بل هناك مناطق انتقالية ليس في قطر واحد

فحسب، وإنَّما بين قطر عربيّ وآخر. ويفضَّل في هذا المجال أن تُجرى أبحاث ميدانية تُجمع فيها الألفاظ العاميَّة الموجودة في لهجاتنا المحليَّة، وأن تُدرس هذه الألفاظ بعد ذلك، فتردّ إلى أصلها الفصيح لمعرفة كيفيَّة وصول هذه الكلمات إلى شكلها الحالي، ومن ثمّ تعميم نتائج هذه الأبحاث على البلاد العربية من أجل تقريب هذه اللهجات بعضها من بعض.

٥- الاستفادة من التقدّم المذهل الذي وصلت إليه برامج الحواسيب الإلكترونية وشبكات الإنترنت في عصر المعلوماتية، وتوظيف هذه الإمكانات والمعطيات في معالجة اللغة العربية ولهجاتها المحليّة، وفي إجراء البحوث الصوتية والصرفية والنحوية والأسلوبية والدلالية.

وأخيرًا فإنَّ اللغة العربية الفصحى هي إحدى مقوّمات وجودنا الإنسانيّ والحضاريّ، وهي هويتنا التي تميّزنا من الآخرين، وهي الوعاء الذي يحتوي تراثنا بمختلف صوره التاريخيّة والفكريّة والدينيّة والثقافيّة وغيرها، وعن طريقها حُفظ ماضي الأمَّة العربية كلَّه، وعن طريقها تلقَّينا وسنتلقَّى الموروثات الحضارية وآخر منجزات العصر. وهي التي تربط المشرق العربيّ بمغربه بأواصر التفاهم والتجاوب، وتجعل من أقطار وطننا العربيّ الكبير وحدة فكرية وثقافية، ينتقل بها الكتاب العربيّ من المحيط إلى الخليج إلى وادي الرافدين رسول فكر وثقافة وعلم وأدب.

## المصادر والمراجع:

### ١- العربية:

-صحيفة الحياة، العدد ١٢٩٣٣ تاريخ ١٩٩٨/٨/١.
- العصر الجاهلي / شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة ط٣، ١٩٦٠.
- فصول في فقه العربية / رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٢، ١٩٨٣.
- القراءات الشاذّة وتوجيهها النحويّ / محمود أحمد الصغير، دار الفكر بدمشق، ط١، ١٩٩٩.
- الكتاب المقدّس.

– مدخل إلى فقه اللغة العربية / أحمد محمد قدور، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

– مشكلة العاميَّة والفصحى في تعليم اللغة العربية للأجانب/ مصطفى النحاس عبد الواحد، الخرطوم ١٩٧٧.

**٢– الأجنبية:**

- Arabische Dialektgeographie (Eine Eifuehrung), von Peter Behnstedt, u. Manfred Woidich, Brill. Leiden. Boston ٢٠٠٥.
- Grundriss der Arabischen Phylologie, von -Wolfdietrich Fischer, Bd. I, Reichert Verlag, Wiesbaden, ١٩٨٢.
- Handbuch der Arabischen Dialekte, von W. -Fischer und O. Jastrow, Harrassowitz. Wiesbaden ١٩٨٠.
- Sprachatlas von Syrien (Kartenband + Beiheft),-Peter Behnstedt, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden ١٩٩٧.